قصة ديك الجن الحمصي

حكاية غرام شاعر قديم احدث وقائعها الرئيسية من التاريخ

تكملة

مضت أشهر برمتها عَلَى ذلك اليوم الذي أدخل فيه ديك الجن زوجته النصرانية الى منزله بعد ان ولع بها بين الرياض وانتشلها من فم الامواج

أشهراً برمتها ظل العروسان يتبادلان الحب ويجتنيان من اثماره الدانية القطاف ويتلذذان بسعادتهما دون ان يرتويا منها ، ودون ان يعكرها مكدر

وكان ديك الجن في سعادته العظمى يشعر أنه قد اصبح ملكاً عظيم جليل الشأن تخضع له الاقاليم ويجثو أمام اعتابه الزمان ، ويخيل له ان مملكته واسعة لا حدود لها ولا نهاية ، وان فيها كل الغنى ومنتهى العظمة وخلاصة السعادة ·

كيف لا وقد كانت تلك المملكة حبه الواسع المتين — ذلك الحب الذي املأ جوارحه كلها وكاد ان يفيض منها فيملأ الدنيا باسرها !

اما انها لمملكة واسعة هو فيها السلطان المطلق · وفيها جنات وواحات وانهار مقدسة وبحار وجداول وأخدار وكنوز — كلها له ، وكل هذه المملكة الواسعة العظيمة محصورة في امرأة جميلة ؛ حلوة الشمائل ، نقية ، زاهرة كأشعة الاصيل ، رقيقة كتنفس الطفل ، شفافة المحاسن ، لطيفة كذرات الاثير القريبة من عرش الله ·

غفل ديك الجن عن الدنيا بأسرها ولم يه... بأحد سوى زوجته الحبيبة الحسناء . وكأنه نسي ان في الكون ... من البشر فلم يشغله فيها لهو ولا عمل . ولم يحفل بالايام والسنين ... بمظاهر الطبيعة من ربيع وخريف أو شروق وغروب . ولماذا ينبغي ... ؟ أليست ابتسامة ورد شروق الصباح ، واغضاؤها هبوط الظلمة ... بس الربيع مزدهراً في محاسن وجهها ، والشتاء أما هو اعراضها ؟

وكان بكر يزورهما بين كل آونة وأخرى ... سعادة صديقه الشاعر ، متمنياً له دوامها . وطالما كان يعيد وصديقه ذكر ... تلك الليلة التي قادهما فيها القدر الى غابة الحور في الدوير — تلك الليلة ... هجم فيها ابوالطيب عَلَى حلقة صفوهما فعكر صفاءها وحال بين لهوهما ... لذاتهما واضطرهما الى مبارحة الميماس والهيمان بين رياض لم يَطرقاها ... قبل .

وقد نسي ديك الجن عداوة ابن عمه ولجاجته . وكان اذا ذكره بكر امامه بكلمة جارحة يقول .

— انا لا اذم من كان السبب في اظبار بدر مضيء في سماء حياتي المظلمة . ولا ألعن من سدد خطواتي نحو فردوس جامع ظفرت فيه بالسعادة والراحة .

اما ابوالطيب فكان يتودد قليلاً لديك الجن ويظهر له الحب مضمراً عكس ذلك . فقد كان لا يزال يحقد عليه في قلبه منذ زمن لغير ما سبب سوى الحسد . وكان ديك الجن قد هجاه قديماً بقصيدة جارحة لحؤوله بينه وبين ما يؤثره ويأتيه من ملذاته ، ولابرامه اياه في كل فرصة ، فزاد

ذلك في حنق ابي الطيب فأضمر الشر في قلبه الاسود لابن عمه · وأثار كامن حقده في المدة الاخيرة زواج ديك الجن بورد الحسناء ، وأغضبه ما رآه من سعادتهما ، فصمم عَلَى ان يكدر صفو حياتهما بكل واسطة ممكنة · وكان ديك الجن قد استدان منه مقداراً من المال لاسعاف بعض اصدقائه فقام الان ابوالطيب يطالبه بالمال مشدداً متهدداً بشكواه الى القاضي

وكان ديك الجن متلافاً لا يبقي عَلَى مال · ترك له ابوه ثروة ونالَ هو ثروة مثلها من الاميرين الهاشميين أحمد وجعفر ابني علي اللذين كانا يحبانه لاختصاصه اياهما بقصائده · ولكنه اتلف كل ذلك الغنى بكرمه وتبذيره · فلما جاءه ابوالطيب مطالباً لم يجد في صندوقه فلساً يدفعه · فافاق من احلام سعادته · واستمهل ابا الطيب فلم يجد منه سوى قسوة تسعى في اسكانه السجن · فلم يرَ لنفسه مخرجاً سوى ان يقصد صديقه الامير أحمد بن علي في مدينة سلمية ويستدين منه المال المطلوب · فودع ورداً والحزن يصدع فوءاده ولاسيما لدى رويته هلعها لفراقه · وأوصى صديقه بكراً ان يعتني بعياله لبينما يعود · وسافر وهو يعلل نفسه بالعود سريعـاً ·

وشيعه بكر الى خارج المدينة ، فلما خرجا من الباب الشرقي المدعو بباب تدمر انبسطت امامهما الصحراء الواسعة فعانق بكر صديقه وقال له ·

— ان قلبي يحدثني باننا لن نلتقي · فاني ما زلت اشعر منذ ليلتنا في المنيماس بأن يد القضاء قد أخذت تشد خيط حياتي شداً عنيفاً ، وأحس في

صدري يهواجس سوداء اود ان اهرب منها ، ولكن هيهات ان يغني حذر عن قدر ·

فبدأ ديك الجن روعه قائلاً ·

— لا تكن فريسة السويداء يا صاح · فما بك من سوء سوى روعة الفراق · ولقد اذكرتني بما جاء في احد الكتب السماوية بلسان الله عز وجل اذ قال — « ان مما عاقبت به عبادي أني ابتليتهم بفراق الاحبة ·» واراني منذ الان شاعراً بشدة وطأة هذا العقاب الصارم فبعيشك ايها الصديق لا تتخلَ عن ورد وفرّج همها في غيابي لئلا تنسي فريسة الاحزان

بكى الصديقان وودع كلٌ الاخر مشعراً بانه يودع قسماً من نفسه · وسار ديك الجن في اثر القافلة التي سبقته متوغلة في البرية · وعاد بكر الى منزل صديقه ليسلي ورداً ويواسيها عَلَى فرقة زوجها

· · · · · ·

ظفر ابوالطيب بما يبتغيه ، فقد كان كل همه محصوراً في أن يضعضع أركان تلك السعادة التي بنت قصرها الشاهق في منزل ديك الجن · اما وقد افلح في البداية وفاز بابعاد من يكره وشتت شمل المحبين فلا بد له من المتابعة الى النهاية حتى يبلغ اربه من ابن عمه · عزم عَلَى ذلك عزماً باتاً ووضع لذلك المخطط ·

واخذ يتردد عَلَى ورد متظاهراً بانه يريد خدمتها وقضاء حاجاتها في غياب زوجها ، ولكنها كانت تقرأ الشر في عينيه ولا تريد رؤيته · فأغضبه

اعراضها ، ولاسيما ان جمالها أثار في نفسه الامارة بالسوء شهواتها الدنيئة فعزم على بلوغ أربه مهما كلفه ذلك ·

ترصدها يوماً الى ان تيقن وحدتها في مقصورتها فدخل متردياً بالابتسامة واللطف متظاهراً باحترامها والتهالك في سبيلها وما لبث ان تطرق في حديثه الى التلميح ثم الى المكاشفة بالغرام · فردته ساخرة موءنبة ، فاستشاط غيظاً وهجم عليها كوحش ضارٍ مفترس ، فدافعت عن نفسها دفاع اليأس حتى نفدت قواها واوشكت ان تسقط مغشياً عليها ، فقيض الله لها في تلك الدقيقة بكراً وقد جاءها برسالة من ديك الجن يخبر فيها انه سيطيل الاقامة في سلمية مضطراً · فلما سمع ابوالطيب خطوات القادم ذعر وفرّ من النافذة وهو يلعن ويتوعد · ورأى بكر ورداً مغشياً عليها فظن ان ذلك من حزنها لفراق زوجها ، فاعتنى بها حتى استفاقت ، ولكنها كتمت عنه أمر ابي الطيب ، وتوسلت اليه ان يكتب الى عبد السلام مستحثاً قدومه

اما ابوالطيب فظل ليلته كلها يفكر عالماً انه وقع في ورطة لا ينجيه منها الا الحيلة · فقد خشي ان تخبر ورد بكراً بأمره فيصل الخبر الى ديك الجن فيدفعه غضبه الى الجريمة والفتك بمن حاول امتهان حرمته · وبعد تفكر طويل اوعزت اليه نفسه الشريرة أمراً رهيباً · فجلس للحال وكتب الى ديك الجن رسالة يسأله فيها القدوم في الحال مخبراً اياه ان ورداً تهوى بكراً ، وانها تخونه ولا تخشى المغبة ، وان ذلك معروف في المدينة يتحدث به القوم من اقصاها الى ادناها · ثم استدعى غلاماً له وأمره بالارتحال الى

سلمية وتسليم الرسالة الى ديك الجن يداً بيد، واوصاه ان يلازمه ويقدم معه اذا تحفز للسفر الى حمص حتى اذا اقترب ديك الجن من المدينة يسبقه الغلام ويوافي ابا الطيب بخبر قدومه.

. . . . .

ولم تمض ايام قلائل حتى عاد الرسول مسرعاً في عصارى احد الايام وأخبر أبا الطيب ان ديك الجن قادم ، وانه تركه وراءه عَلَى قيد مرحلة من حمص . فتهيأ ابوالطيب لملاقاته وبسط الاشراك التي كان يهيئها في نفسه الابليسية .

ثم لقن غلامه كلاماً يقوله وارسل يدعو بكراً ، فجآء هذا مسرعاً ، فرأى ابا الطيب يبكي ويعول وينادي بالويل والثبور . فسأل ما الخبر ، فقصّ عليه الغلام ما لقنه اياه سيده من البهتان وهو يتكلف الحزن في كلماته

— كنا قادمين من سلمية ، فلما صرنا عَلَى مقربة من احدى الخرائب تعرّض لنا رهط من قطاعي الطريق ، فنصحت سيدي ديك الجن بالهرب ولكنه أبى وثبت لقتالهم مع رجال القافلة ، فرجحت كفتنا عَلَى اللصوص وهزمناهم ، ولكن سيدي خرّ قتيلاً في اثناء المعركة ، فتركت جثته مع القافلة وسبقت القوم لاخبركم . وأظنهم سيصلون عما قريب

جمد بكر في مكانه غير مصدق ما حدث . واستغرق في غيبوبة صغيرة ايقظه منها عويل ابي الطيب الكاذب . فنظر الى ما حوله متمالكاً نفسه ولكن قلبه فاض بالحزن فبكى وقال .

— ان انقباض قلبي منذ أمد دلني عَلَى مصيبة قادمة · وها قد نفذ القضاء وا أسفاه ! لهفي عليك يا سيد الشعراء وزين الخلان ! ويا ليتني كنت معك لادافع عنك او لافديك بنفسي ... قبحاً لك يا ابا الطيب فانت الذي فجعتنا بشاعر حمص · لولاك لم يمت ديك الجن · انت كنت سبب موته بتشديدك المطالبة ·

فاستخرط ابوالطيب في البكاء · وقال وصوته يتهدج من الحزن الكاذب

— اني لم اود سوءاً لعبد السلام رحمة الله عليه ، بل أحببت ان لا ينقطع عن الناس فينساه اصدقاوه · أواه ! لو كنت اعلم ان الامر يفضي الى هذه الفادحة لفديته بنفسي ، ولكن لا مرد لقضاء الله · فسر بنا يا بكر لنستقبل جثته ، فقد حان ان تصل الى المدينة · ولنأخذها الى منزله ليلقي عليها الاهل والخلان نظرة الوداع · مسكينة ورد ! ماذا سيحل بها · هلاّ ذهبت اليها يا بكر بنفسك وهيأتها لاستقبال المصاب لئلا يهبط عليها دفعة واحدة فيقتلها · اذهب بربك ودعني استقبل الجثة وحدي ·

فمسح بكر دموعه وقد شعر بعظم المهمة التي القيت عَلَى عاتقه فتقطع فؤاده سلفاً لعلمه بهول الضربة التي حلت عَلَى ورد · وتناسى احزانه هنيهة لما تصوّره من جسامة احزانها وعظم لوعتها · وكاد ان يحجم عن الذهاب اليها بادىء بدء ، ولكنه غالب نفسه ورأى الافضل ان يكون بجانبها في ساعة مصيبتها الشديدة ·

. . . . . .

لما خلا ابوالطيب بنفسه بعد خروج بكر أغرب في الضحك واضحكه نوبة من الجذل لتأكده انه اصبح قريباً من بلوغ غايته بما حفره لبكر وورد وما كاده لديك الجن من المكائد · الفخ قد أعد ، والفريسة سائرة سيراً حثيثاً اليه وقد اعمى القضاء بصرها ·

الان يثأر ابوالطيب لنفسه من ابن عمه ويمحو بالدم آثار الهجاء التي لطخه بها ديك الجن وينتقم من ورد لصدها اياه ، ومن بكر لاخلاصه لديك الجن ؛ ويطمس بذلك عَلَى آثار المكيدة التي رسمها

ألا انها لمكيدة تعجز عنها صروف الحدثان ويقف عندها ابليس صاغراً مقراً بالجهل والقداسة ·

خرج ابوالطيب من منزله وهو يشعر بلذة الظفر والانتقام وسار حتى بلغ باب تدمر ، فجلس خارج المدينة عَلَى الطريق ينتظر قدوم القافلة من سلمية · وبعد قليل رأى غباراً متصاعداً وسمع طنين الاجراس فتهيأ لمقابلة ابن عمه · ولما تبينه بين القوم هرع اليه متظاهراً بالشوق وقبّله وطيب خاطره · اما ديك الجن فكان قد تغير وحلت في وجهه علامات الشحوب والتعاسة محل امائر البشر والسعادة · فان خبر خيانة ورد كاد أن يقضي عليه دفعة واحدة · فقد كان يحبها فأتى من اقتلع من قلبه هذا الحب فاصبح كجثة بلا روح · ولذلك لم يكترث بكلمات الترحاب الصادرة من ابن عمه ولا بما أخذ يقصه هذا عليه من اخبار الخيانة لاينار صدره ، بل قال له باختصار

— مهلاً ودعني أرَ ورداً اولاً واسألها عن القصة . فهي لا تكذب

فابتسم ابوالطيب ابتسامة مكر وتابع المسير بجانب ابن عمه يهمس في اذنه انه أرصد قوماً لمراقبة المنزل وانهم ابلغوه منذ هنيهة ان العاشقين مختليان فيه لا يحسبان حساباً لحادث ، وانه اذا سار ديك الجن معه تواً الى المنزل يفاجئهما ويرى بعينه حقيقة الخبر ، فلا يبقى له من سبيل بالتظاهر بالحلم والتؤدة .

فلمعت في عيني ديك الجن نار سخيفة وتشنج جسمه من موجة يأس شعر بها تتمدد في احشائه وتلطم سفينة حياته المتداعية لطماً عنيفاً لتغرقها . فسار مع ابن عمه صامتاً يكاد ان لا يعي حتى وصلا الى المنزل فدخلاه متلصصين الى ان بلغا مقصورة ورد ، فرأيا فيها نوراً ، فأشار ابوالطيب الى ديك الجن ان يتربص هنيهة ، ثم نظر من ثقب في الباب الى الداخل ليعلم ما اذا كانت مكيدته مطابقة لحسبانه ، فلمح بكراً مكباً عَلَى ورد وقد اغمي عليها من الخبر الهائل الذي ظل الشاب ساعة لا يدري كيف يبلغها اياه ورآه متحيراً في أمره لا يدري كيف يرجعها الى الوعي فكان تارة يمسك بيدها وتارة يفك ازرار قميصها وشاهده اخيراً يحتملها ويضعها عَلَى السرير ويباشر بفرك يديها ودلك جبهتها ليوقظها . فأدرك ابوالطيب في تلك اللحظة ان القدر قد ساعده باكثر مما توقع . ورأى الفرصة سانحة وبراثن القضاء متهيأة لانشاب اظافرها في الفريسة

وكان ديك الجن قد فقد صبره وارتجف من هول الانتظار فدفع

ابن عمه ودخل الى الغرفة دخول الظل · فجحظت عيناه مما أبصر لظنه السوء في حركات صديقه ووقف متفرساً ببكر وورد تفرس يائس حصره القضاء بين النار والهاوية ·

فلما رآه بكر جمد الدم في عروقه وانتصب شعر رأسه وتحدر عرقه البارد خوفاً لظنه انه يشاهد امامه شبح صديقه المقتول ·فرفع يده عن ورد مبهوتاً مذعوراً وعَلَى وجهه روع مبهم وفي قلبه خوف يغالبه الظن

فلم يبقَ للشك مجال في قلب ديك الجن بعدما رآه من جمود صديقه ، فهبطت عَلَى دماغه غيمة ثقيلة مدلهمة ، وتدفق امام عينيه سيل جارف من الدماء ، وهزّت رعشة اليأس جسمه هزاً عنيفاً فتراجع متهادياً ، ووقعت يده بالصدفة عَلَى السيف المتدلي عَلَى جانبه ·

ولم تكن الا لحظة سمع بعدها ابوالطيب من الخارج زمجرة ديك الجن وصراخه بصوت أجش مريع ·

— آه يا خائن · آه يا خائنة ·

وتلا ذلك صراخ أليم رهيب تراجعت امامه امواج السكينة مذعورة ثم طمسته الظلمة ، وعقبه صوت سقوط جسم عَلَى الارض · فعلم ابوالطيب ان ما رغبه قد تم · فانسلّ في الظلمة مطمئن البال عالماً ان الموت قد أخرس شفتين كان موته منوطاً بهما ·

. . . . . .

اضطربت نجوم الليل الساهية واومضت عيونها الناعسة وميض الجزع

واشتد اصفرارها لما لمحه من شق الباب المفتوح — باب مقصورة ورد ، حيث كانت السعادة بالامس مورقة مزهرة فجاء منجل القضاء وحصدها قبل ان تينع وتثمر ·

وهب نسيم لطيف انقلب بعد قليل ريحاً عنيفة صدمت الباب فأغلقته بشدة كأنها تريد ان تمنع عيون السماء من رؤية جريمة ارتعدت لها سكينة الافلاك · فافاق ديك الجن من ذهوله المسموم عَلَى صوت اغلاق الباب ، ونظر الى جثة بكر المنبسطة امامه عَلَى الارض ثم الى جثة ورد الممددة فوق السرير فاتسعت حدقتاه جنوناً واستغراباً · ثم اقترب من ورد وأمسك بيدها كأنه يريد ايقاظها من سبات لطيف وأمعن النظر في تلك القامة البارزة المحاسن التي لم يستطع الموت ان يشوه جمالها ، وتجلى له في تلك الدقيقة جسم ورد ممدداً عَلَى المرج الاخضر بلا حراك بعد ان انتشله من النهر ، فملت براجل حنقه لدى تصوره ان سواه كان يضم ذلك الجسم ويداعبه فنظر الى فوق نظرة لو كان لها قوة لهزت اركان السماء وأفلت يد ورد باشمئزاز فسقطت واهية متروكة وحول وجهه عنها وقد اوشكت ان تنبجس من آماقه دموع اليأس والحنق — دموع لم يبكها آدم عَلَى جنته المفقودة ولم يذرف مثلها ابليس عَلَى سمائه الضائعة ·

ثم تغلبت عليه عاطفة لطيفة أغرقت حنقه ويأسه في بحر من التناسي فشعر بميل واندفاع الى ان يكب عَلَى جثة حبيبته فيقبلها عضواً عضواً ويغسل بدموعه آثار الدم عَلَى الجرح الواسع في صدرها مستغفراً ، نادماً ، متوجعاً ،

متضرعاً ، ناسياً ما حدث . أفليس هو الذي كان يؤمن ان الجمال والكمال واللذة حُصرت في كيان زوجته اللطيفة كما تحصر الخمر في كأس تجمع بين اللذة والطرب والرقة ، أليس هو الذي كان يتوق الى جرعة من تلك الكأس ، ولكنه أهرقها وحطمها بيده

فوضع يده عَلَى قلبه المتفطر وقد علم ان المحور الذي كان كيانه يدور حوله انكسر . ورأى العوالم التي كانت تسير في فلك حياته تتلاطم وتتفرقع وتتساقط الى الهاوية ، وشاهد الحاضر القاسي يمزق بيرائنه جسم المستقبل اللطيف شذر مذر ، وأبصر دم الايام المقبلة يتطاير في كل الجهات ، والشمس تنكسف ، وحوت الموت والظلام يبتلع كل ذرات الاثير المنيرة .

وفاضت الالام في نفسه فاثارت الشعر مع الدمع ، وكلاهما عصارة الكآبة ، فقال يخاطب ورداً

ليتني لم أكن لعطفك نلت والى ذلك الوصال وصلت
فالذي مني اشتملت عليه ولعاري ما قد عليه اشتملت
قال ذو الجهل قد حلمت ولا — أعلم اني حلمت حتى جهلت
لائم لي بجهله ولماذا انا وحدي احببت ثم قتلت
سوف آسي طول الحياة وابكيك عَلَى ما فعلتِ لا ما فعلتُ

. . . . . .

لك نفس موآتيه والمنايا معاديه
ايها القلب لا تعد لهوى البيض ثانيه

ليس برق يكون — أخلب من برق غانيه
خنتِ سري ولم أخنكِ — فموتي علانيه

ثم التفت نحو جثة بكر وقد نسي ما تصوره من خيانته ، وتمثله بقربه خلاً وفياً مخلصاً يقاسمه السراء والضراء فقال يخاطب روحه الهائمة

قل لمن كان وجهه كضياء — الشمس في حسنه وبدر منير
كنت زين الاحياء اذ كنت فيهم ثم أصبحت زين اهل القبور
خنتني في المغيب والخون نكر وذميم في سالفات الدهور
فسقاني سيفي واسرع في جز — التراقي قطعاً وحز النحور
بأبي انت في الحياة وفي الموت — ويوم الثرى ويوم النشور

ولى الليل متعثراً باذياله يكفكف عبراته تاركاً وراءه ديك الجن بين الجثتين طوراً يبكيهما وطوراً يعاتبهما وطوراً يهم ان يدوسهما برجليه حنقاً وتشفياً .

. . . . . .

اضطربت حمص قاصيها ودانيها للفاجعة الهائلة التي انتشر خبرها في اليوم التالي ، واتصل الخبر بالسلطان فاهتم للامر اهتماماً شديداً ، لان القتيلين ، وبالاخص القتيلة ، كانا من عائلات وجيهة في البلد .

ففر ديك الجن من غضب الحكومة ناجياً بنفسه الى دمشق . ومكث هنالك اشهراً متخفياً ، حتى توسط له صديقه الامير احمد بن علي عند السلطان وكتب الى امير دمشق ان يؤمنه . فعاد الشاعر حزيناً كسير النفس الى

زنابق الماء — — للمصور بريدت

حمص وقد بدأت أفاعي الشك تدب في نفسه ·

وبلغه عند قدومه خبر موت ابن عمه أبي الطيب اثر علة شديدة وأقراره قبيل موته امام رهط من الشهود بما كاده لبكر وورد ، وما نشره زوراً عنهما. فكاد ديك الجن ان يفقد عقله من الندم والحزن · وبسط اليقين الهائل حجاباً اسود كثيفاً عَلَى سماء شعوره وكيانه فمكث اشهراً لا يستفيق من البكاء ولا يطعم من الطعام الا ما يقيم رمقه ·

وكان يرى نفسه وحيداً ، متروكاً ، مكروهاً — وحيداً في داره ، وحيداً في المدينة ، وحيداً في مملكة قلبه المظلمة ، وليس له من يقاسمه احزانه واتراحه ، ولا من سمير سوى جيوش اشجانه الخائفة هتاف الويل كل الليل · وحيداً كان يقف عَلَى قمة الاسى فتلتف حوله عاصفة الذكرى والندم غاضبة ، معولة ، مزمجرة ، مجلببة اياه بعثير الالام ، دافعة الى هوة اليأس والهلاك ·

ولم يجد لنفسه سلوى الا في الخمرة ، فاتخذ له كأسين صنع احداهما من تراب قبر ورد والاخرى من تراب قبر بكر · فكان يضع كأس ورد عن يمينه وكأس بكر عن يساره عَلَى المائدة ويملوءهما خمراً ثم يشرب كأس ورد وهو يحسب انه يقبل شفتيها متصوراً انها جالسة بقربه تنادمه كما كانت عادتها وينشدها راثياً ·

يا طلعة طلع الحمامُ عليها　　　فجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما　　　روّى الهوى بشفتيّ من شفتيها

مكنت سيفي من مجال رشاحها ومدامعي تجري على خديها
وحق نعليها وما وطىء الحصى شيء اعز علي من نعليها
ما كان قتليها لاني لم أكن ابكي اذا سقط الغبار عليها
لكن ضننت عليّ العيون بحسنها وأنفت من نظر الحسود اليها

ثم يشرب كأس بكر ويلتفت الى يساره ماسحاً دمعته الهاطلة قائلاً —

يا سيف ، ان يرد الزمان بغدره فلأنت ابدلت الوصال بهجره
قمر انا استخرجته من دجنه لبليتي وجلوته في خدره
فقتلته وبه علي كرامة فله الحشى ولي الفؤاد بأسره
عهدي به ميتاً كأحسن نائم والحزن يسفح عبرتي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده بالحي منه بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه وتكاد تخرج قلبه من صدره

ثم يبكي حتى تختلط خمرته بدموعه ، ويعيد الكرة مخاطباً ورداً بهذه الابيات —

أساكن حفرة وقرار لحد ، مفارق خلة من بعد عهد
أجبني ان قدرت على جوابي ، بحق الود ، كيف ظللت بعدي؟
وأين حللت بعد حلول قلبي واحشائي واضلاعي و كبدي؟
اما والله لو عاينت وجدي اذا استعبرت في الظلمات وحدي
وجد تنفسي وعلا زفيري وفاضت عبرتي في صحن خدي
اذاً لعلمت اني عن قريب ستحفر حفرتي و يشق لحدي

ويعذلني السفيه عَلَى بكائي كأني مبتلى بالحزن وحدي
يقول — قتلتها سفهاً وجهلاً وتبكيها بكاء ليس يجدي
كصياد الطيور له انتحاب عليها وهو يذبحها بجد

ثم يناجي بكراً كأنه يشاطره رأيه في ذم الدهر ووصف ريبه وغدره قائلاً —

ما لا مرىء بيدالدهر الخوءونيدُ ولا عَلَى جلد الدنيا له جلدُ
طوبى لاحبابِ أقوامٍ اصابهم من قبل أن عشقوا موت قد سعدوا
وحقهم ، انه حق أضن به ، لا ينفدن لهم دمعي كما نفدوا
يا دهرُ ، انك مسقي بكأسهمِ ووارد ذلك الحوض الذي وردوا
والخلق ماضون والايام تتبعهم تفنى ويبقى الاله الواحد الصمد

عَلَى ان الحسرة لم تكن تخفف من اشجان الشاعر ، ولم يستطع بخارها أن يطرد الحزن المستعصي في قلبه ، بل كان دبيبها يمنحه بصراً جديداً يرى به خفايا المجاهل .

فكان كل ليلة بعد ان تمتلكه سورة الشراب يرى نفسه منفرداً في جزيرة فاجلة صغيرة يلطم اللج حافاتها .

يرى ذاته جالساً هنالك عَلَى قطع الصخور يتفرس في فضاء ذلك البحر الواسع — بحر الاسى والدموع . فيتأمله مفكراً تفكيراً عميقاً لا قرار له ولا معنى . فيزمجر ذلك البحر الرهيب — بحر الحياة — وتتدفق امواجه المزبدة منقلبة بطناً لظهر امامه ثم تتكسر عند اقدامه ويدوي صوتها دوي

الرعد · والليل بين ذلك قاتم ، عابس ، كريه ، عنيف ·

ويلاه ! انها لرؤى هائلة تتجلى له في عرض ذلك البحر المخيف ، فلا يقوى عَلَى التنفس فيها طويلاً ، فيحول وجهه عنها وقد تشنج من الرعب ويطبق عينيه ليتخلص من هول المنظر ، ولكن ذلك كان يصرفه عنها الى ما هو أشد هولاً ورهبة — الى عاصفة يشعر بها تتولد في نفسه فيصغي الى زمجرتها مرتاعاً ·

تلك اصوات مختلطة ، وجلبة عنيفة ، وقصف رعود ، وسقوط صواعق ، وتلاطم انواء تجتمع كلها في ضجة واحدة تنمو في داخله فتكاد احشاءه ان تتفجر من تمددها · فيشعر بنموها نمواً متواصلاً حتى تعظم وتتجسم في صرخة عنيفة ، لاعجة ، أليمة ، صادرة من عمق القبر ، هاتفة بكلمات مبهمة يفهم منها بعضها ·

— لماذا قتلتنا ايها الظالم !

— لماذا غدرت بنا يا قاسي !

— لماذا خنقت سعادتك بيدك ؟

ثم تختلط اصوات العاصفة اختلاطاً مبهماً فلا يستطيع ان يفهم شيئاً من صراخ الهاوية · وبعد قليل تسكن ويتغلب عَلَى ضجتها المائتة صوت هدير الامواج في اوقيانوس حزنه · فيخيل له انه يسمع منها همس شكوى وتظلم وتأنيب · فتهرع دقات قلبه وينظر الى هنا وهنالك مستجيراً فلا يجد حوله الا ظلمات داجية مختلطة بالامواج · ويرى نفسه عياناً تموت

وتحيا مراراً في لحظة وتقاسي من العذاب ما كل دقيقة منه اشد من عذابات الجحيم الابدية ، فتتخدر شعوره ولا يفقه مما هو فيه شيئاً سوى انه واقف وحيداً في العاصفة متسلطاً عليها وعلى الظلمة والهلاك .

تنقشع الظلمة بغتة فتتجلى له في عباب ذلك البحر الرحيب الزاخر سماء صامتة يزينها كوكبان وحيدان ، متأججان يتألقان بلون الدم ، تتألف منهما ابديتان تتمازجان في فلك واحد . وهذان الكوكبان هما بكر وورد ينظران اليه بعين العتاب السافكة ، فيحول وجهه عنهما متهيباً نظراتهما الحادة ويدنس عينيه ويود أن تقصف العاصفة من جديد وتدلهم السماء فيغور ذانك الكوكبان بلا رجوع . ثم يفتح عينيه مضطراً مدفوعاً بقوة هائلة فيرى الكوكبين يقتربان منه بسرعة الفضاء الى ان يقفا امامه في الغرفة وينبثق من نورهما المدهش خيالا ورد وبكر بجسميهما الطبيعيين قبل الموت ؛ فيلقي بنفسه على اقدامهما منتحباً ، مستغفراً ، ويظل كذلك الى الصباح في يقظة شبيهة بالغيبوبة .

. . . . . .

مضت سنين بلياليها الساترة وأصباحها الفاضحة جرت في أثنائها مياه كثيرة في نهر حياة ديك الجن متدفقة بين شاطئي الاسف واليأس . على ان احزانه ظلت راسخة رغم محاولة الايام طمسها وأثرت سمومها في جسمه فرقاً حتى شابه الخيال .

وافاق ذات يوم فرأى الربيع يسري في عروق الطبيعة ، والشمس تغرس

دفاها في كل قلب . فشعر شعوراً جديداً لم يعرفه منذ سنين . شعر ان قلبه تملص من وثاق الاحزان وأفلت من سجن الندم ، فمد يديه الطامحتين ليتشبث بالحياة والافراح والنور . وانطقه شيطان الشعر فقال

نقل فوءادك حيث شئت فلن ترى كهوى جديد أو كوصل مقبل
مالي أحن الى خراب مقفر درست معالمه كأن لم يوءهل

الا انه لم يكد ان ينهي قوله حتى تحركت دودة اشجانه في داخله تطالبه ببقية دين الاسى . فشاهد الظلمة القاسية تبتلع الشمس التي لم تشرق في قلبه الا لتغرب امام عيني نفسه الكئيبتين . فأطرق وقد شعر بامواج الحزن تتدفق امام بصره الجامد وتبتلع كل ذرة نور في نفسه وتطفيء بزمهريرها كل حرارة في قلبه ، فادرك ان لا مناص له من قبضة الاشجان ، فقال يائساً وقد وأد ما تولد في قلبه منذ هنيهة من الامل الباسم

سأطوي الهوى تحت الحشى طي نازح قضى وطراً ان لم تبح عبراتي
وأعلم أن ما فات ليس براجع وأن قريباً كل ما هو آت

وهبط ليل كثيف رزحت تحت اثقال ظلمته نفس ديك الجن ، فتطلع في اعماق الديجور مفتشاً عن خيال ورد الذي كان يزوره كل ليلة فلم يجده . فانتظره فلم يأت . فشعر بخيط حياته يتقطع . فمد يديه نحو المجهول المعتم وفي قلبه سكينة أليمة — سكينة العذاب الذي لم يعد عذاباً — سكينة الحزن العميق الهادىء الذي اختلط بالدم وقال

أما آن للطيف أن ياتيا وأن يطرق الوطن النائيا

ي لأحسب ريب الزمان يتركني جسداً باليـا
أشكر ذلك لا ناسيـا جميل الصفاء ولا قاليـا
قد كنت أشكره ضاحكاً فقد صرت أشكره باكيـ

خرط في عويل لاعج اهتزت له جوارحه المتألمة واهتزت معها ذرات الظلمة . وكانت روحه تفيض مع كل عبرة . فأنت سكينة الليل غير مت... نفسها وقد تطرق الحزن اليها ، وأنت معها أشباح الايام المنطفئة وارواح ...عادات الذابلة .

ولما أطلت أشعة الصباح من نافذة السماء وجدت ديك الجن جثة بلا حراك وقد ... روحه مع دموعه وزفراته .

. . . .

هذه قصة الشاعر الحمصي عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن الذي أحب وقتل وندم ثم مات ، روتها لي همساً امواج العاصي في أصيل يوم من أيام الصيف عندما كنت أطالع بعض أشعاره في كتاب قديم ، وأكدتها لي نسمات الزعر العاتية . وسمعت بين انات الحرير وزفرات الحزن صوتاً خفياً يقول .

ان الحياة بأسرها تدور حول محور واحد هو « الحب والموت »

« نسيب عريضه »

« العارف بالله شرف الدين »

(« عمر بن الفارض »)